



كتاب الملال

الأرواح المتمرّدة - الأجنحة المتكسّرة

الموسيقى

٣ كتب في كتاب

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

جبران خليل جبران



سلسلة شهرية
تصدر عن دار المشرق



الموسيقى

Ambly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

جلست بقرب من احبتها نفسى اسمع حديثها . اصفيت
ولم أنبس بينت شفة ، فشعرت ان فى صوتها قوة اهتز لها
قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتى عن ذاتى ، فطارت
نفسى سابحة فى فضاء لا حد له ولا مدى ، ترى السكون
حلما والجسد سجننا ضيقا .

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بمشاعري
ما فعل ، وأنا لاه عن كلامها بما أغنانى عن الكلام

هى الموسيقى أيها الناس ، سمعتها اذ تنهدت حبيبتي
بعيد بعض الكلمات وابتسمت فى بعضها . سمعتها لما حكّت
تارة بالفاظ متقطعة وآونة بجمل متواصلة واخرى بكلمات
أبقت نصفها بين شفيتها

تأثيرات قلب حبيبتي ، رايتها بعين سمعى فاشغلتنى عن
جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هى
صوت النفس

بلى ، فالموسيقى هى لغة النفوس ، والالحان نسيجات
لطيفة تهز أوتار العواطف . هى أنامل رقيقة تطرق باب
المشاعر وتنبه الذاكرة ، فتنتشر هذه ما طوته الليالى من
حوادث أثرت فيها بماض عبر

هى نغمات رقيقة تستحضر ، على صفحات المخيلة ، ذكرى
ساعات الأسى والحزن اذا كانت محزنة ، او ذكرى أوقات
الصفاء والأفراح اذا كانت مفرحة

هى مجموع اصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ
اضلحك لوعة وتمثل لك الشقاء كالاشباح

هى تأليف أنغام مفرحة ، تعيها فتأخذ بمجامع قلبك
فيرقص بين اضلك فرحا وتيها

هى رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الأثير ، فقد
تخرج من عينيك دمة محرقة أثارتها لوعة نأى حبيب أو آلام
كلوم خرقتها ناب الدهر . وربما خرجت من بين شفتيك
ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء

هى جسم من الحشاشة ، له روح من النفس وعقل من
القلب

وجد الانسان فأوحيت اليه الموسيقى من العلاء لفة ،
ليست كاللغات ، تحكى ما يكنه القلب للقلب ، فهى حديث
القلوب . وهى كالحب عم تأثيرها الناس ، فترنم بها البرابرة
فى الصحراء ، وهزت أعطاف الملوك فى الصروح . مزجتها
التكلى مع نوحها ، فكانت ندبا يفتت قلب الجماد . وبشها
الجدلان مع أفراحه ، فكانت أنشادا يطرب مغلوب الأرزاء ،
فقد حاكت الشمس ، اذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ،
فتظهر أعماقه . والألحان فى قضائى اشباح الذات الحقيقية
أو خيالات المشاعر الحية . والنفس كالمرآة المنتصبه تجاه
حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الاشباح
وصور تلك الخيالات

النفس زهرة لينة فى مهب ريح المقادير ، نسيمات الصباح
تهزها وقطرات الندى تلوى عنقها . كذا تغريدة عصفور
تنبه الانسان من غفلته ، فيصفى ، ويشعر ، ويمجد معه
الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج
تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحف به ،

عما أسره لحن ذلك الطائر الحقيق فحرك أوتار عواطفه
وأوحى اليه معاني ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل
مستفهما عما اذا كان العصفور ينجى زهور الحقل أم
يحاكى أغصان الأشجار أم يقلد خرير مجارى المياه أم ينادم
الطبيعة بأسرها ، ولكنه لا يستطيع الى الحصول على
الجواب سبيلا

الانسان لا يدري مايقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ،
ولا الجداول على الحصباء ، ولا الأمواج اذ تأتي الشاطئ
ببطء وهدوء . ولا يفقه ما يحكيه المطر اذ يتساقط منهملا
على أوراق الأشجار ، او عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور
نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه
يشعر أن قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتز
لها تارة بعوامل الطرب ، ويتنهطورا تنهدات الأسى والكآبة .
أصوات تناجيه بلغة خفية ، وضعتها الحكمة قبل كيانه ،
فتحدثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود
اللسان حائرا ، وربما ناب عن لفظه الدمع والدمع أفصح
مترجم

تعال معى يا صاح ، الى مسرح الذكرى لنرى منزلة
الموسيقى عند أم طوتها الأيام ، وتعال نتأمل تأثيرها فى كل
دور من أدوار ابن آدم

عندها الكلدانيون والمصريون كاله عظيم يسجد له ويمجد .
واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال
شاعر فارسي ما معناه : « ان الموسيقى كانت حورية فى
سماء الآلهة فعشقت آدميا وهبطت نحوه من العلو ،
فغضب الآلهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحا شديدة نثرتها
فى الجو وبعثرتها فى زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قط بل
هى حية تقطن آذان البشر »

وقال حكيم هندي : « ان عذوبة الالحان توطد آمالي بوجود أبدية جميلة »

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الها مقتدرا ، بنوا له هياكل عظيمة مابرحت تحدثنا بعظمتهم ، ومذابح فخيمة ، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم . الها دعوه « أبولون » فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصبا ، كالغصن على مجارى المياه ، يحمل القيثارة فى يسراه ، ويمينه على الأوتار ، رأسه مرفوع يمثل العظمة ، وعينه ناظرتان الى البعيد كأنه يرى أعماق الأشياء

وقالوا ان رنات أوتار أبولون صدى صوت الطبيعة . رنات شجيرة ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهيدات النسيم وحفيف أغصان الأشجار

وجاء فى أساطيرهم أن رنات أوتار «أورفيوس» الموسيقى حركت قلب الحيوان فاتبعته الضواري ، والنبات ، فمدت نحوه الأزهار اعناقها ومالت اليه الأغصان ، والجماد ، فتحرك وتفتت

وقالوا فقد أورفيوس زوجته فبكاه وراثا نادبا حتى ملأت نغمة لوعته البرية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت قلوب الالهة ففتحت له أبواب الأبدية كى يلتقى بحبيبته فى عالم الأرواح

وقالوا قتلت بنات الأحرار أورفيوس ورمين برأسه وقيثارته الى البحر ، فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان « جزيرة الأغاني »

وقالوا ان الأمواج التى حملت رأس أورفيوس وقيثارته ما برحت منذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندبا مؤثرا وانغاما محزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون

هذا كلام — بعد أن قضى عز تلك الأمة ومضى — دعوانه خرافات مصدرها الوهم وأحلاما ابتدعتها التصورات ، غير أنه قول دل على أن تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقا وعظيما فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال ، وهذا في عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت البنا آثار الآشوريين رسوما تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها ، وحدثنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد . أجل . فالسعادة بدونها تحكى فتاة قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع أمم الأرض ، سبحت معبوداتها بالاناشيد ومجدها بالألحان ، وكانت التراتيل — وهى الآن — فرضا كالصلاة يقدمونها في المعابد ، ومحرقات يقفونها على القوة المعبودة . محرقات مقدسة مبدأها عواطف النفس . صلوات يهذبها القلب وما اكملته اهتزازات المشاعر . أنفاس حرة ما زلفتها الألفاظ بل نظرت بها أنفاس أثارها ندامة الملك داود فملأت أناشيده أرض فلسطين ، وابتدعت أشجانه أنفاما شجية مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ، تطلب له مغفرة زلاته ، وكان رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق ، وسرت مع قطرات دمه الى أصابعه ، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس . وهو القائل : « هللوا للرب ، سبحوا الرب بصوت البوق ، سبحوه بالزماير والقيثارة ، سبحوه بالطبل والدفوف ، سبحوه بالأوتار والأرغن ، سبحوه بصوت الصنوج ، سبحوه بصنوج التهليل وكل نسمة فلتسبح الرب » . وجاء في الأسفار أن ملائكة من السماء تأتي ، في آخر الدهر ، نافخة الأبواق في جميع أقطار العالم فتستفيق من صوته الأرواح وتلبس أجسامها

وتنشر امام الديان . لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى
اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر ، وما قول
الكاتب الا صورة مشاعره ، وعلى نوع كلام ينطبق على
اعتقادات معاصريه

وجاء ، في بدء مأساة ابن البشر ، ان التلامذة سبحوا
قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم ،
وكانى الآن اسمع نغم تلك التسبيحة صادرا من اعماق
نفوس حزينة رأت ما سيحل برسول السلام فتنفست عن
نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع

تسير الموسيقى ، امام العساكر ، الى الحرب فتجدد
عزيمة حميتهم وتقويهم على الكفاح ، وكالجادبية تجمع
شتاتهم وتؤلف منهم صفوفا لا تتفرق . ما سارت الشعراء ،
امام الكتائب ، الى ساحات القتال ، موطن المنية ، لا ولا
الخطباء ، ما رافقتهم الأقلام والكتب ، بل مشيت امامهم
الموسيقى كقائد عظيم ، ييث في اجسامهم الواهنة ، قوة
تفوق الوصف ، وحمية تنبه في قلوبهم حب الانتصار
فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكل ما في
اجسادهم من القوة ، ووراءها يسيرون بفرح وطرب
ويتبعون الموت الى ارض العدو المبغوضة . كذا يستخدم
ابن آدم اقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون

الموسيقى رفيقة الراعى في وحدته ، وهو ان جلس على
صخرة في وسط قطيعه نفخ بشبابته الحانا تعرفها نعاجه
فترعى الاعشاب آمنة . والشبابة عند الراعى كصديق عزيز
لا تفارق وسطه ، ونديم محبوب ، تستبدل سكينه الاودية
الرهيبة برياض مأهولة ، وتقتل بانعامها الشجية وحشتها ،
وتملأ الهواء أنسا وحلاوة

الموسيقى تقود اظعان المسافرين وتخفف تأثير التعب
وتقصر مديد الطرقات . فالعيس لا تسير في البیداء الا اذا

سمعت صوت الحادى . والقافلة لا تقوم بثقل الاحمال الا اذا كانت الاجراس معلقة برقابها . ولا بدع ، فالعقلاء فى ايماننا هذه يربون الضوارى بالالحن ويدجنونها بأصوات عذبة

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا الارزاء والأفراح وتساهمنا السراء والضراء . وتقوم كالشاهد فى ايام مسرتنا وكقريب شفوق فى ايام شقائنا

ياتى المولود من عالم الغيب الى دنيانا ، فتقبله القابلة والأقارب بأغانى الفرح ، متاهلين بأناشيد الابتهاج والحبور . يحييهم ، عندما يرى النور ، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل والتهنأف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على افهامه الحكمة الالهية

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنت بصوتها الموسيقى المملوء رقة وحنوا ، فيكف عن البكاء ويرتاح للحن أمه المتجسمة من الشفقة وینام . وفى الحان الوالدة ونغمتها قوة توغز الى الكرى ليغمض أجفان طفلها . وتشارك تلك الالحن السكينة بهدوئها فتزيدها حلاوة ، وتمحو رهبتها وتملاها سحرا من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلب الرضيع على الأرق وينام وتطير نفسه الى عالم الأرواح . ولا ينأى الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرأت ابن الفارض ..

ينتقى الرجل شريكة حياته وتتحد نفسيهما برباط الزواج ، متممين وصية كتبها الحكمة منذ البدء على قلبيهما ، فيجتمع الأقارب والخلان ويفرحون بالأناشيد والأهازيج ، ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة ، فكانى بها ، يوم العرس ، صوت رهيب تمازجه

الحلاوة ، صوت يمجّد الله في مخلوقاته ، صوت ينبه الحياة
النائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الأرض

وعندما يأتي الموت ، ويمثل آخر مشهد من رواية الحياة ،
نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملأ الجو بأشباح الأسى ،
في تلك الساعة الموحجة اذ تودع النفس ساحل هذا العالم
الجميل وتسبح في بحر الأبدية ، تاركة هيكلا الهولى بين
أيدي الملحنين والندابين ، فيتأوهون بنغمات الحزن والأسف
ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيعونها بألحان مفادها الضيم
وأناشيد معناها السكمد واللوعة . نغمات يحيونها ما بقى
التراب فوق التراب ، وان بليت يبق صداها في خلايا الجوارح
ما دام القلب يذكر من مضى

جالست من ميزه الله بعذوبة الصوت وحباه ادراك فلسفة
التنظيم والايقاع فرايت السامعين حوله مصفين ، صاغرين ،
ماسكين أنفاسهم ، محكومين بفواعل السكينة ، شاخصين اليه
كالشعراء المستسلمين لقوة فعالة ، توحى اليهم أسراراً
غريبة ، حتى اذا ما انتهى الملحن من انشاده تنهدوا ذاك
التنهد الطويل : آه .. آه .. صادرة من أفئدة هيجت
فيها الألحان عواطف مكنونة فلذ لها التأوه . آه ، تتنفسها
قلوب حرى أنعشتها الذكرى . آه ، كلمة صغيرة لكنها حديث
طويل . آه ! ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه ،
بل تنهداها من أعار أذنا لنشيد نسج من مقاطع أنفاس
متقطعة . أنفاس حية مثلت له فصلا من رواية حياته
الماضية او فشت سرا أكتته أضلعه

وكم تأملت وجه سامع حساس فرايت ملامحه تنقبض
تارة وتنبسط طورا وتنقلب مع تقلبات النغم . واهتديت
بخلقه الى خلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره

والموسيقى كالشعر والتصوير ، تمثل حالات الانسان
المختلفة وترسم اشباح اطوار القلب وتوضح خيالات ميول

النفس وتصوغ ما يجول في خاطر وتصف أجمل مشتهيات
الجسد

« النهاوند » يمثل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف
آخر نظرة من راحل عزيز . يمثل شكوى آلام مبرحة بين
ضلوع قوامها لظى الشوق . النهاوند صوت من أعماق
النفس الحزينة . نغم متجسم من مهجور يسأل عطفاً على
رمقه قبل أن يضنيه البعاد . زفرات يائس أنشأتها المراودة
وتنهيدات قانط بثتها لوعة من أتلغه الصبر والتجملد .
النهاوند يمثل الخريف وتساقط أوراق الأشجار المصفرة
بسكينة وهدوء ، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها .
النهاوند صلاة والددة نأى ابنها إلى أرض بعيدة ، فباتت بعده
تغالب النوى فيها جمها بعوامل اليأس وتصده بفواعل الصبر
والأمل . وفي النهاوند معنى ، بل معان وأسرار ، يفهمها
القلب وتفقهها النفس . أسرار يحاول بثها اللسان وكشفها
القلم ، فيجف هذا وتنقطع أوصال ذلك ..

وأصغيت « للأصفهان » فشاهدت ، بعين سمعى ، آخر
فصل من حكاية عاشق دنف ، مات حبيبته فتقطعت عرى
آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من
الحياة ، ويرثى ببقايا ما في حياته من الرمق . الأصفهان
آخر نفس من منازع واقف ، في مركب الموت ، بين شاطئ
الحياة وبحر الأبدية . الأصفهان رثاء الذات بغصات متقطعة
متواصلة وتنهدات عميقة . نغمة صداها سكينة تمازجها
مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء

وان كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل ، فالأصفهان
انين من انفصمت عرى آماله

ونسلم « الصبا » فتستفيق منا قلوب حجبته لحف
الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع . فالصبا نغمة فرح
تنسى المرء أتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذة غريبة ،

ويستزيد منها كأنه يعلم أن خمرة المسرة تسابقها . الصبا
حديث محب مغتبط صارع الدهر وارغم أنف البين وأسعدته
الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد ، فأولاه
اللقاء فرحا وابتهاجا . الصبا كنسيمات الصبا ، تمر فتهتز
لها أزاهر الحقل تيهها وابتهاجا

و « للرصد » ، في سكينه الليل ، وقع في المشاعر يحاكي
تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال ، انقطعت أخباره
في بلاد بعيدة ، فجاء الكتاب يحيي عاطفة الأمل ويعد النفس
باللقاء . وكأنني بمغنى الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار
الظلام ، وقد قيل : « ان جهاز ليلك فارصد » ..

وفي « العتابا » البعلبكية عتاب رقيق يراوح بين اللوم
والتعنيف ، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المفرح
وفعلها في النفس فعلهما

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، أراني كطفل ينسخ
كلمة من نشيد طويل ، غنته الملائكة عندما جبل الله الإنسان
الأول ، أو كأني يستظهر جملة من كتاب وضعت الحكمة
على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر

فيا أيتها الموسيقى ، يا أوتربى المقدسة (١) ، لقد رقصت
أخواتك الفنون فيما غبر من الأجيال زمنا ، ووضعن في
معازل النسيان آخر ، وأنت تهزئين بهن ولم تتنازلي عن
مسرح النفس يوما واحدا ، فكأنك صدى القبلية الأولى التي
وضعتها آدم على شفתי حواء . صدى له صدى له صدى ،
تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكل وتحيا بالكل ، يلذ لعمالها
عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه

يا بنة النفس والمحبة . يا أناء مرارة الغرام وحلاوته .
يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح .

(١) أوتربى : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان

يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة .
يا لسان المحبين ومذبة أسرار العاشقين . يا صائفة الدموع
من العواطف المكنونة . يا موحية الشعر ومنظمة عقود
الأوزان . يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ، ومؤلفة المشاعر
من مؤثرات الجمال . يا خمرة القلوب الرافعة شاربها الى
اعالى عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس
العابدين . يا أيتها التموجات الأثرية الحاملة أشباح النفس
ويا بحر الرقة واللفظ ، الى أمواجك نسلم أنفسنا وفي
أعماقك نستودع قلوبنا ، فاحملها الى ما وراء المادة وأرينا
ما تكنه عوالم الغيب

تكاثرى يا عواطف النفوس وتعاضى يا مشاعر القلوب
وارفعى أيدى ذوى الأيدى لبناء الهياكل لهذه الآلهة
العظيمة ، وانزل يا ملاك ألوحى على قلوب الشعراء ، واسكب
في خلایا قريحتهم مديحا وتسبيحا لهذه العظيمة المقدسة ،
واكبرى يا تخيلة الرسامين ، وأبتدع لها صورا وأشباحا

كرموا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها ، وعيدوا لذكر
خدامها وشيدوا لهم التماثيل . صلى أيتها الأمم وسلمى
على أورفيوس وداود والموصلى ، وعظمى ذكر بيتهوفن
وفغزر وموزار . وغنى يا سوريا باسم شاكر الحلبي ،
ويا مصر باسم عبده الحمولى . كبر أيها الكون الألى بثوا في
سمائك أنفسهم وملأوا الهواء أرواحا لطيفة وعلموا الإنسان
أن يرى بسمعه ويسمع بقلبه . آمين . .

هذا الكتاب

ثلاثة كتب في كتاب من هذه السلسلة . اخترناها من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران التي قامت على نشرها لجنة احياء ذكرى جبران . واول هذه الكتب : « الارواح المتمردة » . وهو كما يدل عليه عنوانه يتحدث عن ارواح تمردت على التقاليد والعادات القاسية التي تحد من حرية الفكر وانطلاق العواطف والوجدان

والكتاب الثانى : « الأجنحة المتكسرة » . وقد اصدره جبران بعد « الارواح المتمردة » بأربع سنوات في نيويورك . وفيه يروى رواية حبه الاول يوم كان طالبا ببيروت . يرويها بأسلوب شعري شائق مشبع بروح التقديس للحب ولذاته وآلامه

والكتاب الثالث : « الموسيقى » . وهو من اوائل ماكتبه جبران ، وهو يصور عالم النفس وكيف يتأثر بأنغام الموسيقى ، وألوانها ، وكيف انها لغة الانسانية جمعاء التي لا تعادلها لغة في التفاهم بين بنى الانسان وعلى الرغم من ان جبران عاش في امريكا واحدا وثلاثين عاما ، ولم يعيش في وطنه لبنان غير سبعة عشر عاما الا ان اكثر مؤلفاته وكتاباتة شرقية تتدفق حبا للشرق وتعرض صورا عربية ، والحانا عربية تنبع من قلب عربى ، وتصدر عن وجدان عربى فنان